شعر الأمير عبد القادر: المضمون والتشكيل

د.حورية رواق

جامعة خنشلة

مقدمة

لطالما اعتزت الجزائر بتراثها وما زالت كذلك، وهي اليوم تستمد منه القوة في تطلعها إلى المستقبل، ومن الأيّام التّاريخية المسجّلة في أدبها يوم السابع والعشرين من شهر نوفمبر ذكرى بيعة الأمير عبد القادر الجزائري منذ عام 1832 م، التي على إثرها قاوم الاحتلال الفرنسي سبعة عشر عاما وألحق به هزائم كثيرة في معارك عدة أهمها معركة "خنق النطاح" أواخر ذي الحجة 1248هـ/29ماي 1832م على مقربة من وهران، وقد سجّلها في قصيدة ملحمية رائعة وصف فيها التحامه بجيش العدو مفتخرا بفنون القتال وقوة رجاله.

ألم تر في خنق النطاح خناقنا غداة التقينا،كم شجاع لهم هوى([1])

ولأنّ ذكرى كهذه ينصهر فيها التّاريخ مع الأدب واجب يحتّم علينا الوقوف عند شخص الأمير ذي الحنكة السياسية، والمطالعة الكثيرة، والثقافة الواسعة، عاشق نظم الشعر. و لاجتماع المجاهد الفارس، والشاعر الحساس في شخصه، كان أن أسفر ديوانه عن شعر تعددت أغراضه بين فخر، وغزل، وتصوّف وغيرها من الأغراض التي سنأتي إلى شرحها في هذه الدراسة.

1- المضامين

مثلما كان الأمير محاربا وفارسا مجاهدا وهو ما شهد به الأعداء قبل الأصدقاء، فحين سئل الماريشال سوليت عام 1840عن رأيه في عظماء الرجال في القرن التاسع عشر قال:"لا يوجد الآن في العالم أحد يستحق أن يلقب بالأكبر إلا ثلاثة رجال هم: "الأمير عبد القادر الجزائري"، و"محمد علي باشا"، و"محمد شامل الداغستاني"([2]) فكذلك كان فارسا في نظم الشّعر وهو ما يشهد به ديوانه الذي جمعه ابنه محمّد وأطلق علي اسم:"نزهة الخاطر في قريض الأمير عبد القادر"، هذا الدّيوان الذي تمّ طبعه في مطبعة المعارف – مصر 1903، له أيضا طبعات وتحقيقات متعددة بعضها تحت عنوان "ديوان الأمير عبد القادر الجزائري"، – تحقيق ممدوح حقي – دار اليقظة العربية – دمشق – 1960، و«ديوان الأمير عبد القادر الجزائري» – تحقيق وشرح وتعليق زكريا صيام -ديوان المطبوعات الجزائرية – الجزائر– وللإشارة في هذه المقالة قد اعتمدنا الدّيوان المحقّق من قبل الدّكتور العربي دحّو، والموسوم بـــ :"ديوان الأمير عبد القادر الجزائري" – والذي تولّت طبعه مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري عام– 2000.

وعليه، سيكون تتبّعنا للأغراض كما هي مصنّفة لديه بدءا بالفخر، فالغزل فالمساجلات، فقصائد المناسبات، فالتصوف، فقصائد المواقف والمذكّرات وهي النّصوص التي استدركها خلافا لمن سبقه من محقّقي الدّيوان أمثال:"محمود حقّي"، و" زكريا صيام".

أ- الفخر

يضمّ القصائد التي يعتزّ فيها بنفسه، ويعلي من شأنه، فأوّل ما يقابلك من نصوصه ذلك التّوقيع الجميل الذي درج الأمير على تدوينه أسفل أو خلف صورته إذا ما أراد إهداءها، يقول:

لئن كان هذا الرّسم يعطيك ظاهري فليس يريك الرّسم صورتنا العظمى

وما المرء بالوجه الصّبيح افتخاره ولكنّه بالعـــــقل والخلق الأسمى([3])

ويشيد بنسبه الشّريف الذي يرجع إلى "الحسن بن علي وفاطمة" رضي الله عنهما، وإلى النّبي صلّى الله عليه وسلّم، وحسبه هذا العزّ الذي جعله يترفّع عن كلّ الدّنايا، فكان يتحمّل الصّعاب للوصول إلى المجد عبر سلّم المكارم من (شجاعة، وفروسية، ونجدة، ومروءة...) وكلّ ما افتخر به أجداده وتلك كانت عادة لا يحيد عنها يقول:

لنا في كلّ مكرمة مجال ومن فوق السّماك لنا رجال

ركبنا للمكارم كلّ هول وخضنا أبحرا ولها زجال([4])

والأمير عبد القادر إذ يؤسّس للدّولة الحديثة لا يتوانى في الارتكاز على قانون إحقاق الحقّ، وتطبيق العدل مستندا إلى السّلف الصّالح من الحكّام المسلمين، عمر الفاروق ((ض)) يقول مفتخرا بنفسه وبفضل رجاله الذين يلقون الرّعب في قلوب الأعداء:

وقد سرت فيهم سيرة عمرية وأسقيت ظاميها الهداية، فارتوى([5])

عموما فالمتصفّح في فخر الأمير عبد القادر يلمس تأثّره الشّديد والواضح بشعر القدامى من أمثال عنترة العبسي، والمتنبّي، وأبي فراس الحمداني، وغيرهم من أمراء الفروسية والشّعر.

ب- الغزل

يضمّ القصائد التي تغنّى فيها بأهل بيته زوجته المصون وأمّ البنين كما يحلو له مناداتها، وعبر نصوص هذا الغرض استطاع الأمير رسم صورة امتزجت فيها روح التّضحية والبطولة بمخاطبة الأنثى، مستحضرا طيفها تارة ليبثّه أشواقه وحرمانه النّوم، وتارة أخرى يشكو الجفاء، و لا عزاء له غير دموعه يسكبها ويرسلها حزنا على ذلك، وتارة ثالثة يستعطف الحبيبة حين يمتد جفاؤها تدلّلا وتمنّعا، ولكنّه حين لا يحضى بأمنياته يتأسّى بالصّبر والاستسلام لقدره، فيقول:

وأطل قربه فيزيد بعدا قديما من وصال في نفار

يتيه بدلّه ويصول عمدا غنيّ بالجمال فلا يداري

فإن لم يجد بالوصل أصلا ويدن الطّيف من سكني وداري

أقل للنّفس:ويك ألا فذوبي وموتي فالقضاء عليك جار([6])

جـــ - المساجلات

وهو مجموع القصائد التي نظمها ردودا على مراسلات أو مناسبات، كانت أم تبادل زيارات، أم لقاءت سمر، أم عيادات مرض، أم رسائل شوق أثناء أداء واجب الجهاد، أم كتابات عتاب ولوم، أم تسجيل وقفات تضامن، كذلك الموقف الذي كان من الأمير حين التزم صديقه بالحمية طلبا للشّفاء فشاركه، أم حتّى الاحتفال بشراء عقار (كشرائه دارا للأوقاف)، أم ردّا على قصيدة ثناء ومدح وغير ذلك من المناسبات. ومن روائع هذه النّماذج خاتمة هذا القسم تلك التي ألغز فيها بالشّيب والكبر، وكان لها صدى في عصره لدرجة أن عارضها بعض الشّعراء، يقول:

أقول على صدق لأهل النّهى طرّا ولست بمستثن لئيما ولا حرّا

ألا خبّروني:أين ضلّت عقولكم وكلّكم يستهجن الشّرّ و الضّرّا

ويغفل عنه وهو منتبه له ويطلب هذا الشّرّ أعظم به شرّا

وحينئذ يقلاه كلّ مصاحب ومن مسّ هذا الضّرّ هيهات أن يبرا([7])

د- المناسبات

هي القصائد التي نظمها في المناسبات المختلفة، واللقاءات الكثيرة التي كان يحضرها، ومن موضوعاتها نص الأبيات التي أشاد فيها بتشييده حصن (تازة) أو في نص تكذيبه إشاعات فرنسا القائلة بموته، بغرض إفزاع جيوشه. ومن المناسبات التي أثارت مشاعره حادثة خروج السّلطان عبد المجيد من السّجن،يقول:

أمنت من كلّ مكروه ومظلمة فبح بما شئت تفصيلا وإجمالا

هذا مقام التّهاني قد حللت به فارتع ولا تخش بعد اليوم إنكالا

عبد المجيد حوى مجدا وعزّ علا وجلّ قدرا كما قد عمّ أنوالا([8])

ومن روائع شعر المناسبات، أبيات الوصف وهي كثيرة، اخترنا منها هذه التي يصف فيها ناعورة وقد وسمها بالعاشقة، وهي الأبيات التي ارتجلها في مأدبة غداء أقيمت على شرفه في حماه عام 1882م يقول:

وناعورة ناشدتها عن حنينها ... حنين الحوار والدّموع تسيل
فقالت وأبدت عذرها بمقالها ... وللصّدق آيا عليه دليل
ألست تراني ألقم الثّدي لحظة ... وأدفع عنه والبلاء طويل
وحالي كحال العشق بات محالفا ... يدور بدار الحبّ وهو ذليل
يطاطئ حزنا رأسه بتذلّل ... ويرفع أخرى والعويل عويل([9])

هـــ - التّصوّف

نشأ الأمير عبد القادر نشأة دينية مليئة بالورع، والتّقوى، والزّهد، وكان من الطّبيعي أن يتأثّر بشيوخه المتصوّفة، فيمجّدهم ويمدحهم في شعره، فكان من ذلك مدحه لشيخه محمّد الفاسي وهو مقيم بجوار البيت الحرام، وفي القصيدة جهاد نفس شاق، وما يروى في مناسبة نظمها أنّ الأمير كان قد انقطع إلى العبادة بمكّة المكرّمة إلى أن جاءت البشرى بالرّتبة على عادة المتصوّفة وحينها شدا بهذه القصيدة المطوّلة يقول فيها:

أمسعود جاء السّعد والخير واليسر ... وولّت جيوش النّحس ليس لها ذكر
ليالي صدود وانقطاع وجفوة ... وهجران سادات...فلا ذكر الهجر([10])

إلى قوله:

غياثي من أيدي العداة ومنقذي ... منيري مجيري عندما غمّني الغمر
محمّد الفاسي له من محمّد ... صفيّ الإله الحال والشّيم الغرّ([11])

و- شعر المواقف والمذكّرات

وهما الملحقان اللّذان أضافهما المحقّق إلى الدّيوان استدراكا للمحققين الذين سبقوه، يضمّ القسم الأوّل نصوصا متنوّعة الموضوعات،(تتوزّع على أبيات في الإلغاز، في وصف الإحساس بنعمة الحرية، في الثّناء على الخالق، في تعظيمه وتوحيده، في النّظر في الحياة والفناء، وبعضها في العشق الصّوفي، في حقيقة النّفس البشرية، في تمجيد العقيدة، وغيرها من المواقف. ومن هذه النّماذج الكثيرة يقول في حقيقة الموت والحياة:

أرى الذي أفناني سيخلفني ... يقوم برسمنا فيشمله الحدّ
لذاك أرى اسمه يعيّن رسمنا ... يجيب إذا دعي لا ردّ ولا جحد
فما بالهمّ يدعونه عبد قادر ... و لم يبق إلاّ قادر ما له عبد([12])

أمّا القسم الثّاني من الملحق فيقتصر على قصيدتين إحداهما في وصف رحلة إلى "مدينة بو" والثّانية في "مدينة طولون"، ويقول في وصفها:

أطلون أغمرتنا بالبسط والنّعم ... أنلتنا كرما بالفضل منفعم
أطلون طلّت رفيعا شدّت في غرف ... تعلو على غرف بالموج ملتطم
أطلون قد علت الجبال مترلة ... يا حبّذا الرّفع مثوى كلّ منتعم([13])

2- التّشكيل

لم يقف شعر الأمير عبد القادر عند كونه موهبة خاصّة به وحسب، بل كان عاملا من عوامل بناء الدّولة الجزائرية الحديثة من خلال استنهاضه مشاعر أمّته، كما كان قوّة جذب شدّت إليه أنظار العالم فجعلته من طلائع رجال النّهضة الحديثة. وأما نشأته في بيت علم وتصوّف - كما سبقت الإشارة- فقد ساعدته في الإفصاح عن آرائه ومشاعر، ومن ثمّ التّأثير في المحيطين به.

لكن رغم هذا وذاك ولأنّ الشّعر فنّ لغوي عريق في العربية، فإنّ شعر الأمير عبد القادر كما يقول ممدوح حقّي:"أخر حلقات الشّعر المنحدر من القرون الوسطى بكلّ ما فيه من مزايا وعيوب"([14])، لذلك لا غرابة إن وجدنا الكتابة عند شاعرنا تتأرجح بين القوّة والضّعف، بعبارة أخرى بين اللغة الجزلة، والتّصوير الجميل، والخيال الواسع، وبين الكتابة على نسق النّحاة والبلاغين ممّا قد يضع النّظم في قالب مقنّن مكرور.

أ-المعجم

إن كنّا نجد مثل هذه المفارقات في أسلوب شاعرنا، فذلك لأنّ تجربته الشّعرية تمثّل مواقفه على اختلاف منازعه بين البطل الفارس، والعاشق المتيّم، والصّوفي الورع، لذلك لا يتوانى عن محاكاة قوة القدامى واحتذاء لغتهم، وفي الآن نفسه لم يستطع النفاذ ممّا أصاب العربية في عصره.

وبدءا بالمفردة ولأنّها « نواة الجملة ومن ثمّ نواة النّص، ومن انزياحاتها عن بيتها المعجمي تنشأ جماليات النّص»([15])، فهو حين يتزوّد من معجم الشّعر القديم نجده يستعين في وصف شجاعته وفروسيته وبلائه في المعارك بألفاظ من مثل (البيض، والقنا، والغمد...) وهو وسط معركة تجاوزت هذه الأسلحة إلى المدافع، والبنادق، والسّفن البحرية .يقول:

ولست أهاب البيض كلاّ ولا القنا بيوم تصير الهام للبيض كالغمد([16])

وإذا ما وقفنا أمام ذات عبد القادر المتصوّفة بهرنا بلغة الوجد الصّوفي الذي تتجلّى في هيام العاشق للذّات الإلهية، فيذكّرنا بالحلاّج واستخدامه للرّموز الصّوفية من مثل (القرب، البعد، العشق، المحبّة، الظّمأ، التّوحّد...) يقول في قصيدة "أنا الحبّ والمحبوب والحبّ جملة":

فما القرب لي شاف ولا البعد نافع وفي قربنا عشق دعاني هيمانا
وفي بعدنا شوق يقطع مهجتي كتقطيع بيت الشّعر للنّظم ميزانا
فيزداد شوقي كلّما زدت قربة ويزداد وجدي كلّما زدت عرفانا([17])

إلى أن يقول:

ومن عجب ما همت إلاّ بمهجتي ولا عشقت نفسي سواها وما كانا
أنا الحبّ والمحبوب والحبّ جملة أنا العاشق المعشوق سرّ وإعلانا([18])

ولننظر إلى هذه المفارقة اللّغوية عند شاعرنا ففي الوقت الذي يستحضر قوّة لغة عنترة بن شدّاد حين يخاطب ابنة عمّه فيقول:

سلي البيد عنّي والمفاوز والرّبا وسهلا وحزنا،كم طويت بترحالي([19])

يترل إلى نزعة تقريرية في لغة بعيدة عن لغة الشّعر، وهي ألصق بلغة النّثر،"مقلّدا الموروث صياغة ومحتوى"([20]) فإذا قال ابن الفارض:

فلا عيش في الدّنيا لمن عاش صاحيا ومن لم يمت سكرا بما فاته الخرم

قال الأمير:

ولا عيش في الدّنيا ولا من رزيئة سوى رجل عن نيلها حظ نزر

ومن توظيفه لبعض المصطلحات النّحوية على سبيل التّورية، يقول:

قد كنت مضمر خفض ثمّ أكسبني رفعا وقد عمّني جودا وأفضالا
وبالإضافة بعد القطع عرّفني وحطّ عنّي تصغيرا وإعلالا([21])

عموما فمعجم الأمير عبد القادر الشّعري تتجاذبه مدرستان: التّقليدية حين يوظّف لغة القدامى من أمثال عنترة وامرئ القيس و المتنبّي، وأبي فراس، وابن الفارض، وأمثالهم محاكاة وتأليفا، ومدرسة عصره التي افتقرت إلى الكثير من الحيوية والإيحاء حين اهتمّت بالشّكل عل حساب المعنى.

ب- التّصوير

إذا تركنا المعجم إلى التّصوير فأوّل ما يمكن تسجيله من ملاحظات على ديوان الأمير أنّ التّصوير لديه كلاسيكي بحت، والغرض منه التّوضيح تماما كتلك التي نجدها عند الشّعراء القدامى، ولعلّ قصيدته "ما في البداوة من عيب" والتي يفاضل فيها بين البدو والحضر مطلقا العنان لخياله، مستعيرا من الموروث الشّعري العربي ممّا اختزنته ذاكرته، وانطلاقا من المقابلة بين المدح والذّمّ، يعتزّ بالبادية وبالحياة فيها، والسّفر عبرها، والتّمتّع فيها بالصّحّة، وطيب المأكل والمشرب والإقامة، نافيا عنها كلّ العيوب من مثل خطورة السّفر بالبحر، وتفشّي المرض وضنك العيش وصعوبته، ملصقا إياها بالمدينة أو الحاضرة ولنقرأ هذه المتفرّقات من القصيدة والدّالة على هذه الصّور والدّلالات التي لا يتجاوز فيها التّصوير الخارجي شأنه في ذلك شأن القدامى الذين تنافسوا على حشد أكبر عدد من الصّور دون مراعاة الجانب الشّعوري:

ياعاذرا لامرئ قد هام في الحضر	وعاذلا لمحبّ البدو والقفر
لا تذممنّ بيوتا خفّ محملها	وتمدحنّ بيوت الطّين والحجر
سفائن البرّ بل أنجى لراكبها	سفائن البحر كم فيها من الخطر
نحن الملوك فلا تعدل بنا أحدا	وأيّ عيش لمن قد بات في خفر
وصحّة الجسم فيها غير خافي	والعيب والدّاء مقصور على الحضر
من لم يمت عندنا بالطّعن عاش مدى	فنحن أطول خلق الله في العمر([22])

وإذا كان يستحضر من التّراث الشّعري ملمحا في هذه الّصورة فإنّما تأخذنا الذّاكرة الشّعرية إلى قول المتنبّي:

حسن الحضارة مجلوب بتطرية	وفي البداوة حسن غير مجلوب

ومن صور استحضاره للتّراث الشّعري هذه الصّورة التي يمزج فيها الشّوق والحنين إلى أهله وهو في منفاه بصورة المعارك التي خاضها متأسيا عن أسره ومنفاه، محاكيا أميرا من أمراء القول العربي، أبا فراس الحمداني في رومياته، فحين يئنّ أبو فراس في قوله:

أقول وقد ناحت بقربي حمامة	أيا جارتا لو تعلمين بحالي

يرسل عبد القادر زفراته قائلا:

حنيـــني، أنيـــني، زفـــرتي، ومضـــرّ	دموعي، خضوعي، قد أبان الذي عندي([23])

غير أنّ هذا لا يمنع من خصوصية شعر الأمير لظروف اختصت به دون غيره، فكان أنّ رأى الواقع بصورة مغايرة ميّزته ولعلّ شعره الصّوفي خير دليل حين يتحدّث عن الوجد الصّوفي، ويغلب التّيه الرّوحاني على الشّاعر المتصوّف، فيستخدم من الرّموز ما ينقل عالمه الباطني المشعّ بالحركة والحيوية والجمال، فيستعير ويشبّه ويضمّن معانيه أشرف المعاني المستقاة من الوحي الإلهي ليرتقي بنظمه عن كلّ نظم. فلنتأمّل تشبيهه للنّحس (ويقصد هموم الدّنيا) بالعدوّ الذي حاربه وما يتبع هذه الصّورة من معاناة، وهذا التّناص من القرآن الكريم الموافق لقوله تعالى: " فذلك فضل الله يأتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم"([24]) وهو كثير في هذا النّص، ولا عجب في ذلك فالشّاعر قد حفظ القرآن وهو صغير وشرب من السّيرة النّبوية الشّريفة، وتتلمذ على كبار المتصوّفة أمثال ابن عربي، وابن الفارض، وجالس العلماء في تونس، ومصر، وسورية، والحجاز. وفي النّص أيضا الكثير من الصّور التي تدعو إلى التّامّل والتّمتّع، يقول:

أمسعود جاء السّعد والخير واليسرّ	وولت جيوش النّحس ليس لها ذكر([25])
فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء	وليس على ذي الفضل حصر ولا حجر([26])

ج – الإيقاع والموسيقى

تستدعي الدّراسات الحديثة في هذا النّوع من التّحليل عدم الفصل بين الإيقاع الدّاخلي والخارجي، ذلك أنّ العلاقة بينهما تكاملية للارتباط القائم بين الشّكل والمضمون في العمل الفنّي، ثمّ إنّ البحر، و الرّوي، والقافية ليس كلّ شيء في بناء النّص، ذلك أنّ روافد أخرى كالأصوات، والألفاظ، والتّراكيب، هي من يشكّل الهيكل الموسيقي العام.

والأمير عبد القادر في ديوانه قد حافظ على الشّكل التّقليدي للقصيدة العربية العمودية (وزنا وقافية) وبإلقاء نظرة على الدّيوان سطّرنا الجدول الآتي لتوضيح استخدامه للبحور في قصائده ومقطوعاته.

البحـــــور	النّصـــــــوص
الطّويل	33 قصيدة ومقطوعة
البسيط	13
الكامل	10
الوافر	09
مجزوء الرّمل	04
المتقارب	03
الرّمل	01
الهزج	01
غير الموزون	04 أذكار وتهويمات صوفية

وإذا كان الطّويل يطغى على باقي الأوزان فذلك لأنّه يناسب مختلف الموضوعات (فخرا كانت أو غزلا، أو وصفا...).ورغم مقدرة الشّاعر في هذا المجال، لم يخل شعره من بعض العيوب التي وقع فيها كغيره ومنها بعض الزّحافات والعلل، وخاصة شعره الصّوفي الذي يسمو في معانيه لكن كثير الاضطراب (قد يكون ذلك راجع لسبب النّقل عنه)، وإذا كانت بعض ظواهر الخروج عن قواعد اللغة يراها البعض أخطاء فـــناقد مثل:"كوهين" يرى أنّ"الخروج على قواعد التّركيب، وأنّ الانحراف هو الشّرط الضّروري لكلّ شعر، بعبارة أخرى أنّ بناء الشّعر يتحقّق بطريقة الانحراف عن هذه القواعد" ([27]). ومن أمثلة ذلك الزّحافات واضطراب الوزن: في عبارة ((هلكى)) من قوله:

ويح أهل العشق هذا حظّهم هلكى،مهما كتموا أو صرّحوا([28])

الإقواء في قوله:

لا تعجبوا من حديثي جلّ من عجب حقيق قـــولي لا لغـــو ولا كذبِ([29])

وانظر إلى الزّحاف في الشّطر الثّاني من قوله:

وإنّي شربت الكأس والكأس بعده وكأسا وكاسا شيا ما أنا حاضرا([30])

وهذا الاضطراب الكبير من قوله

أوقات وصلكم عيد وأفراح يا من هم الرّوح لي والرّوح والرّاح([31])

وانظر إلى هذا الخروج عن الوزن في الشّطر الثّاني من البيت:

فـــيا نـــــــورا بلا شمـــــس ويا شمـــــسا بلا نـــــور([32])

وإذا انتقلنا إلى الموسيقى الدّاخلية، فلعلّ أهم ظاهرة يمكن الإشارة إليها هي:

التّكرار

فهو من المظاهر الإيقاعية البارزة في لغة الشّاعر ويأتي على نسق لغوي واحد كتكرار حرف، أو فعل، أو عبارة بكاملها، والدّيوان يعجّ بهذا الأسلوب من ذلك وعلى سبيل المثال لا العدّ تكرار "كم الخبرية "في قصيدة "الباذلون أنفسهم" إذ تتكرّر كم الخبرية

المتبوعة بفعل تسعة عشر مرّة على مدار سبعة أبيات.(كم نافسوا،كم ضاربوا،كم غالبوا،كم صابروا،كم كابروا،كم جاهدوا.....) وإن كان لمثل هذا الأسلوب من جمال فهو ذلك التّأكيد الصّارخ على قيمة التّضحية، يقول:

كم نافسوا كم سارعوا كم سابقوا — من سابق لفضائل وتفضّل
كم حاربوا كم ضاربوا كم غالبوا — أقوى العداة بكثرة وتموّل
كم صابروا كم كابروا كم غادروا — أعتى أعاديهم كعصف مؤكل
كم جاهدوا كم طاردوا وتجلّدوا — للنّائبات بصارم وبمقول
كم قاتلوا كم طاولوا كم ماحلوا — من جيش كفر باقتحام الجحفل
كم أدلجوا كم أزعجوا كم أسرجوا — بتسارع للموت لا بتمهّل
كم شّردوا كم بدّدوا وتعوّدوا — تشتيت كلّ كتيبة بالصّيقل([33])

لكنّنا إذا انتقلنا إلى صورة أخرى من صور التّكرار فهي لا تعد أن تكون ملمحا من ملامح التّلاعب اللّفظي كمثل ما نراه في قصيدة "ذات خلخال" التّي حشد فيها لفظة "خال" عبر ثمانية عشر بيتا لتدلّ عبر لون بديعي – وهو "الجناس"- على معاني كثيرة منها(الشّامة، و البرد اليماني، والبرق، وخالي البال، والجبان والإسوارة، وغيرها من المعاني الواردة في نص القصيدة)،يقول:

خليلي وافت منكم ذات خلخال — تتيه على شمس الظّهيرة بالخال
تميس فتزري بالغصون تمايلا — تروح وتغدو في برود من الخال
لها منطق حلو به سحر بابل — رخيم الحواشي وهو أمضى من الخال
موشّحة من طرزكم ببدائع — محجّبة عن كلّ ذي فطنة خال
وكسوها النّعماء من كلّ محسن — يصدّ لمراها الشّجاع كما الخال
فما نسج داوود كنسج عناكب — ولا الغادة الهيفاء تزه بخلخال([34])

التّطريز والتّضمين

وهو ذلك الإيقاع الحاصل من وراء إيراد بعض المتجانسات والمتناقضات، خاصّة حين يتعلّق الأمر بالجوانب ذات الطّابع الوجداني أو الرّوحي الدّيني كما في قصيدة "توسّلات ودعاء"يقول:

يا ربّ يا ربّ يا ربّ الأنام ومن — إليه مفزعنا سرّا وإعلانا
يا ذا الجلال[35]،وذا الإكرام،مالكنا — يا حيّ، يا موليا فضلا، وإحسانا([36])

وكذا في نص "آمن من حمام مكّة" حيث يعمل الجناس، والطّباق، وألف الإطلاق على رجع موسيقى روحية وهو ما نجده بكثرة في القصائد الدّينية والصّوفية يقول:

الحمد لله تعظيما وإجلالا — ما أقبل اليسر بعد العسر إقبالا
وما أتت نفحات المسك ناسخة — من المكاره أنواعا وأشكالا([37])

عموما ورغم كلّ هذه الملاحظات يبقى الأمير عبد القادر الجزائري الشّاعر، الفارس، المجاهد، ذخر هذا الوطن في شخصه التّعليمي والدّيني المربّي، والشّعري والسيّاسي والعسكري، والعلمي، والعالمي رغم ما حيك ويحاك، فيكفيه جهدا أنّه حارب الجهل والفرقة وسعى إلى توحيد صفوف الجزائريين في الدّاخل و لم يأل جهدا أيضا في محاربة المستعمر الفرنسي الذي قبع على صدر الجزائر ردحا ليس بالهيّن على رجل مثله أن يتحمّله.

إحالات وهوامش

[1]–العربي دحّو، ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، جمع وتحقيق، مراجعة محمّد رضوان الدّاية، مؤسّسة عبد العزيز سعود البابطين2000 ص 45

[2]- فؤاد صالح السيد، الأمير عبد لقادر الجزائري متصوفا وشاعرا، المؤسسة الوطنية-الجزائر- 1985 ص 11،عن أحمد درويش، في صحبة الأميرين أبي فراس الحمداني وعبد القادر الجزائري،مؤسسة سعود البابطين،2000 ص 137.

[3]- ديوان الأمير عبد القادر الجزائري،ص29

[4]-الدّيوان،ص 31

[5]- الدّيوان ،ص 47

[6]- الدّيوان ،ص54

[7]- الدّيوان، ص 92

[8]- الدّيوان، ص 110

[9]- الدّيوان، ص 133

[10]-الدّيوان، ص 138

[11]- الدّيوان، ص 140- 141

[12]- الدّيوان، ص 168

[13]-الدّيوان ص194

[14]- ممدوح حقّي، ديوان الأمر عبد القادر، شرح وتحقيق، ص 35،عن أحمد درويش، في صحبة الأميرين أبي فراس الحمداني وعبد القادر الجزائري، مؤسّسة عبد العزيز سعود البابطين،2000،ص 147.

[15] - محمد صابر عبيد، جماليات القصيدة العربية الحديثة، منشورات وزارة الثّقافة دمشق د ط، 2004،ص 104

[16]- الدّيوان، ص 61

[17]- الدّيوان، ص 156

[18]- الدّيوان، ص 157

[19]- الدّيوان، ص 38

[20]- عبد الرّزاق بن السّبع، الأمير عبد القادر وأدبه، مؤسّسة عبد العزيز سعود البابطين،2000،ص 296

[21]- الدّيوان، ص 112

[22]- الدّيوان، 39-42

[23]- الدّيوا ن،ص 60

[24]- الجمعة، 40

[25]- الدّيوان، ص 138

[26]- الدّيوان، ص 143

[27]- جان كوين، بناء لغة الشّعر، ترجمة أحمد درويش، دار المعارف 1993،ص 90

[28]- الدّيوان، ص 158

[29]- الديوان، ص 165

[30]- الدّيوان، ص 170

[31]- الدّيوان، ص 152

[32]- الدّيوان، ص 172

[33]- الدّيوان، ص 100-101

[34]- الدّيوان، ص 64-65

[35]- الرّحمن، 78" تبارك اسم ربّك ذي الجلال والإكرام"

[36]- الدّيوان، ص 113

[37]- الدّيوان، ص 109